Al-Mukhtar Journal of Social Science 44(1): 348-366, 2026
Doi: https://doi.org/10.54172/gwdxn177

Research Article

Open Access

همزيَّة مصطفى بن زكري الطرابلسيِّ، في أوصاف الإمام المهديِّ السنوسيِّ: تحقيق ودراسة

عبد الغني عبد الله محمود[1]*، أحمد محمَّد جاد الله[2]*

الباحث الاول[1]*:
قسم اللغة العربيَّة وآدابها، جامعة عُمر المختار، البيضاء، ليبيا.

الباحث الثاني[2]*:
قسم اللغة العربيَّة وآدابها، جامعة عُمر المختار، البيضاء، ليبيا.

المستخلص: تناول هذا البحث بالتحقيق والدراسة نصًّا شعريًّا لم يُنشر من قبل، وهو همزيَّة الشاعر مصطفى بن زكري الطرابلسيِّ (1853–1934م) في أوصاف الإمام محمَّد المهديِّ السنوسيِّ. وتتجلَّى أهمِّيَّة الدراسة في كونها تكشف عن حلْقة مفقودة في ديوان الشاعر، عُثر عليها ضمن مخطوط (الشموس النورانيَّة) للسيِّد أحمد الشريف، ما يمنح النصَّ قيمة توثيقيَّة وتاريخيَّة. اتَّبعت الدراسة منهجيَّة التحقيق العلميِّ لضبط النصِّ وتصحيح ما اعتراه من تصحيف وسقط نتيجة تفرُّد المخطوطة، والمنهج الوصفيَّ التحليليَّ لاستنطاق مضامين القصيدة واستجلاء أبعادها اللغويَّة والأدبيَّة. وتوصَّل البحث إلى أنَّ الشاعر برع في توظيف المشاكلة بين أوصاف الممدوح والشمائل النبويَّة المأثورة، ليرسِّخ صورة الوارث المحمَّديِّ والوليِّ المرشد. كما أبرزت القصيدة الأبعاد الاستراتيجيَّة والروحيَّة لانتقال المركز السنوسيِّ من الجغبوب إلى الكُفرة، مجسِّدة عمق الروابط الروحيَّة والثقافيَّة بين حاضرة طرابلس ومركز السنوسيَّة في الصحراء، ومنخرطة في سياق المعارضة الشعريَّة للنماذج الكبرى كهمزيَّة البوصِيريِّ، وصولًا إلى تأثُّر أمير البيان شكيب أرسلان بها ومعارضتها.

الكلمـــات المفتاحيَّـــة: مصطفى بن زكري، المهديّ السنوسيّ، الطريقة السنوسيّة، الأدب الليبيّ، تحقيق المخطوطات.

The Hamziyya of Mustafa bin Zikri al-Trabulsi, on the Attributes of Imam al-Mahdi al-Senussi: A Critical Edition and Study

Abstract : This research provides a critical edition and analytical study of a rare, previously unpublished poetic text: the "Hamziyya" by the prominent Libyan poet and scholar Mustafa bin Zikri al-Trabulsi (1853-1934 AD), composed in praise of Imam Muhammad al-Mahdi al-Senussi. The significance of this study lies in its discovery of a "missing link" in the poet's printed *Diwan*, found within the manuscript *Al-Shumus al-Nuraniyya* by Sayyid Ahmad al-Sharif, granting the text dual documentary and historical value. The study employs a rigorous philological methodology to edit and verify the text, correcting scribal errors and omissions caused by the uniqueness of the manuscript, alongside a descriptive-analytical approach to interpret the poem's thematic and aesthetic dimensions. The findings indicate that the poet skillfully utilized "Prophetic Traits" (*Shama'il*) to depict the subject, establishing the Imam as a "Muhammadan Heir" and a spiritual guide. Furthermore, the poem highlights the strategic and mystical dimensions of the Senussi center's relocation from Jaghbub to Kufra, embodying the deep spiritual and cultural ties between the city of Tripoli and the Senussi headquarters in the desert. Finally, the study situates the poem within the tradition of poetic emulation (*Mu'arada*), tracing its stylistic lineage from Al-Busiri's classical model to its later influence on the renowned writer Shakib Arslan, who emulated its meter and rhyme.

Keywords : Mustafa bin Zikri, Al-Mahdi al-Senussi, Senussi Order, Libyan Literature, Manuscript Editing.

***Corresponding author:**
Abdulghani A. Mahmoud,
abdulghani.abdullah@omu.edu.ly
Department of Arabic Language and Literature, Omar Al-Mukhtar University, Al-Bayda, Libya.

Second Author:
Ahmad M. Jadallah,
ahmad.jadallah@omu.edu.ly
Department of Arabic Language and Literature, Omar Al-Mukhtar University, Al-Bayda, Libya.

Received:
01-04-2026

Accepted:
15-04-2026

Publish online:
30-04-2026

The Author(s) 2024. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/) , which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium ,provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

المقدِّمة:

كان الشعر العربيُّ، على مرِّ العصور، سجلًّا أمينًا يوثِّق سير الأعلام وحركات الإصلاح التي تصنع التاريخ. وفي هذا السياق، تكتسب دراسة المدائح الصوفيَّة والتاريخيَّة أهميَّة قصوى، لا سيَّما تلك النصوص التي لم تجد طريقها إلى النشر بعد. وهذا البحث يقدِّم تحقيقًا ودراسة لهمزيَّة الشاعر الأديب مصطفى بن زكري الطرابلسيِّ، في أوصاف السيِّد محمَّدٍ المهديِّ السنوسيِّ، الخليفة الأوَّل للطريقة السنوسيَّة.

تنبُع أهمِّيَّة هذه الدراسة من كونها تخدم جانبين معرفيَّين رئيسين؛ حيث تُمثِّل القصيدة نصًّا أدبيًّا مخطوطًا غير منشور في ديوان الشاعر، ما يجعل الكشف عنها وتحقيقها إضافة حقيقيَّة للمكتبة الأدبيَّة الليبيَّة والعربيَّة؛ فهي وثيقة شعريَّة نادرة توثِّق لمرحلة مهمَّة من تاريخ الطريقة السنوسيَّة بشكل خاصٍّ والقطر الليبيِّ بشكل عامٍّ. ثمَّ تكشف الهمزيَّة عن مدى عمق تأثير الإمام المهديِّ الذي تجاوز حدود برقة ليصل إلى حاضرة طرابلس وأدبائها، ما يؤكِّد الدور المحوريَّ للشعر في توثيق سيرة شخصيَّة بهذه المكانة الروحيَّة.

وتنطلق مشكلة البحث من التفرُّد بنسخة مخطوطة غير محقَّقة، ما يضع تحدِّيات أمام التحقيق والتحليل، وتتركَّز مشكلة البحث في التعامل مع المشكلات اللفظيَّة والعروضيَّة الناتجة عن أخطاء الناسخ وتفرُّد المخطوطة، وضبط النصِّ لغويًّا وعروضيًّا بصورة تضمن سلامته ودقَّته. ثمَّ مدى مطابقة الأوصاف الشعريَّة التي أوردها ابن زكري مع الأوصاف التاريخيَّة الموثَّقة للإمام المهديِّ، وكيفيَّة تعبير الشاعر عن الرابطة الروحيَّة بين طرابلس والمركز السنوسيِّ.

واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفيِّ التحليليِّ لدراسة المضامين الفكريَّة والجماليَّة للنصِّ، واستنطاق الأبعاد التاريخيَّة والتربويَّة الكامنة في القصيدة.

ولتحقيق الأهداف المرجوَّة، جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث؛ خُصِّص المبحث الأوَّل منها للممدوح والشاعر والسياق، وتضمَّن المبحث الثاني: تحقيق النصِّ، بينما قدَّم المبحث الثالث قراءة تحليليَّة وجماليَّة للنصِّ، وتضمَّنت الخاتمة أهمَّ نتائج الدراسة.

المبحث الأوَّل: الممدوح والشاعر والسياق

يتناول هذا المبحث تأصيل النصِّ من خلال التعريف بالشخصيَّة المحوريَّة الممدوحة (المهديُّ السنوسيُّ)، والشاعر (مصطفى بن زكري الطرابلسيُّ)، وتحديد علاقتهما، وسياق نشأة القصيدة.

المطلب الأوَّل: الممدوح (المهديُّ السنوسيُّ)[1]

هو السيِّد: محمَّدٌ المهديُّ بن السيِّد محمَّد بن عليٍّ السنوسيِّ الخطَّابيِّ الحسنيِّ الإدريسيِّ (1260 – 1320هـ / 1844 – 1902م)، يتَّصل نسبه بسيِّدنا الحسن السبط.

وُلد المهديُّ في الجبل الأخضر بليبيا، بكهف قرب الزاوية البيضاء، يوم الاثنين، الأوَّل من ذي القَعدة 1260هـ/11 نوفمبر 1844م.

حظي بتربية علميَّة مكثَّفة في البيضاء ثمَّ الحجاز، ثمَّ في الجغبوب، حيث أتمَّ حفظ القرآن الكريم، وتلقَّى مبادئ العلوم، على كبار علماء الإخوان السنوسيِّين. ثمَّ خلف والده بعد وفاته في 9 صفر 1276هـ/8 أغسطس 1859م، حيث اضطلع بعبء استكمال مسيرته الدعويَّة والإصلاحيَّة.

وفي مدَّة خلافته (1859 – 1902م) بلغت الطريقة السنوسيَّة ذروتها، واتَّسعت شبكة زواياها في مناطق شاسعة شملت برقة وطرابلس وفزَّان، وكذلك مصر والحجاز والسودان وتشاد والنيجر ونيجيريا. ما أدَّى إلى قلق القوى الأوربِّيَّة؛ إذ كان الإمام المهدي –كما يقول شكيب أرسلان– هو «المزاحم الأكبر لجمعيَّات المبشِّرين الأوروبِّيَّة المنبثقة في قارَّة أفريقيا»[2].

بقي المهديُّ في الجغبوب يدير شؤون الطريقة لمدة (36) عامًا، ثمَّ اتَّخذ قراره المفاجئ في شوَّال 1312هـ/إبريل 1895م بنقل المركز إلى الكُفْرة، متَّخذًا من زاوية التاج مقرًّا له، ليسبق بذلك وصول غزاة أوربَّا ومبشِّريها إلى تلك المناطق.

تمتَّع المهديُّ بصفات خَلقيَّة تحمل دلالات الأوصاف النبويَّة، ومن أبرز ما جاء في وصفه:

- **وصف السيِّد أحمد الشريف:** «مُدوَّر الوجه، واسع الجبين، أزهر اللون إلى البياض أقرب، كثُّ اللحية، على خدِّه الأيمن خالٌ، رَبْعة إلى الطول أقرب، عريض الكتفين والمَنكِبين، واسع الثغر، مُفلَّج الثنايا، أقنى الأنف، أقرن الحاجبين، أدعج العينين... خُلُقه نبويٌّ، يملأ عين من رآه هيبة»[3].
- **وصف الرحَّالة التونسيِّ الحشائشيِّ:** «محمَّد المهديُّ المشهور بالبدر؛ لجماله... يغلب عليه السكوت والمودَّة والوقار، رخيم الصوت، دمث الأخلاق، تميل النفوس لرؤيته»[4].
- **وصف صادق مؤيِّد العظم:** «جميل الصورة لدرجة عظيمة جدًّا... ويلقي وجهه المنير الممزوج بالحلاوة والهيبة، الحبَّ في قلوب من أمامه، وهو متواضع فوق الحدِّ، ورقيق الجانب»[5].

إنَّ هذه الأوصاف الموثَّقة تؤكِّد مكانته، وتبرِّر طبيعة المدح في القصيدة.

المطلب الثاني: الشاعر (مصطفى بن زكري الطرابلسيُّ)[6]

هو الشيخ الأديب الشاعر مصطفى بن محمَّد بن إبراهيم بن زكري الطرابلسيُّ (1270 – 1353هـ / 1853 – 1934م)، إحدى الشخصيَّات الأدبيَّة البارزة في مدينة طرابلس أواخر العهد العثمانيِّ الثاني وبدايات الاحتلال الإيطاليِّ.

وُلد ونشأ في طرابلس، وتلقَّى تعليمه الأوَّليَّ في كتاتيبها ومساجدها، ثمَّ انتسب إلى الحِلق العلميَّة في جوامعها الكبرى. تثقَّف ثقافة دينيَّة ولغويَّة عربيَّة رصينة، وأتقن التركيَّة، وتلمذ لمفتي طرابلس في زمانه، الشيخ محمَّد كامل بن مصطفى. يتميَّز برقَّة الأسلوب وصفاء الديباجة، ويُعدُّ من الأدباء الحضريِّين.

كان مدح ابن زكري للمهديِّ السنوسيِّ تعبيرًا عن انتماء فكريٍّ وروحيٍّ؛ فقد أخذ ابن زكري عن شيخه الشيخ محمَّد كامل بن مصطفى، الذي تلقَّى الورد وأجيز بما تضمَّنه كتاب (المنهل الرويُّ الرائق، في أسانيد العلوم

وأصول الطرائق) عن تلاميذ الإمام المؤسِّس المباشرين (أبي القاسم العيساويِّ، وعبد الله السنِّيِّ، ومحمَّد طاهر الغدامسيِّ)، وتتجلَّى هذه النسبة والولاء بوضوح في ختام الهمزيَّة:

خَطَّهُ نَسِيمُ الْمَوَدَّةِ فِي الْقُرْ بَى، وَلِلْمُحِبِّ نِسْبَةٌ وَوَلَاءُ
هَذِهِ نِسْبَتِي، وَغَايَةُ مَا أَرْ جُوهُ مِنْكُمْ تَوَجُّهٌ وَدُعَاءُ

ومصطلح «النسبة» يحمل دلالة صوفية؛ فهي تعني الارتباط بالشيخ لغرض التزكية، وهي غاية قصوى يرجو من ورائها «التوجه والدعاء»، ويؤكِّد الشاعر هذه النسبة والولاء في قصيدة أخرى، حيث يعلن أنَّ نسبته إلى الإمام هي غايته وملاذه:

مَا لِي –وَقَدْ فَرَّطْتُ– إِلَّا نِسْبَتِي لَكُمُ، وَأَرْجُو أَنْ أَفُوزَ بِهَا غَدَا

المبحث الثاني: تحقيق النصِّ الشعريِّ

إنَّ أُولى خطوات التعامل العلميِّ مع أيِّ نصٍّ تراثيٍّ هي إثباته على الوجه الأقرب لما أراده صاحبه، وتقديمه للقارئ في صورة واضحة وموثَّقة. وفيما يأتي بيان المنهجيَّة المتَّبعة في التحقيق، ثمَّ عرض النصِّ المحقَّق.

المطلب الأوَّل: وصف النسخة المعتمدة ومنهجيَّة التحقيق

1- وصف النسخة (المخطوطة):

اعتمد التحقيق على نسخة خطِّيَّة وحيدة، أوردها السيِّد أحمد الشريف في المرصد المخصَّص لبيان أحوال ومناقب الأستاذ الأعظم السيِّد محمَّد المهديِّ السنوسيِّ من كتابه الكبير المخطوط (الشموس النورانيَّة العرفانيَّة الإشراقيَّة في بيان أعلام الطريقة السنوسيَّة الإدريسيَّة المحمَّديَّة)، نسخة منه محفوظة بمكتبة الباحث: أحمد محمَّد جاد الله، بمدينة البيضاء. وتتَّصف القصيدة بالآتي:

شغلت القصيدة (3) صفحات من المخطوط (324، 325، 326). في آخر كلِّ صفحة تعقيبة. كُتبت بخط مشرقيٍّ دقيق من نوع الرقعة. غير مضبوطة بالشكل. لم تخلُ من الطمس والسقط والتحريف والتصحيف. عليها تصويبات وتصحيحات من الناسخ أو من مالك المخطوط[7].

2- منهجيَّة التحقيق:

لإخراج هذا النصِّ الشعريِّ في صورة تليق به وتيسِّر قراءته وتحليله، اتَّبعنا المنهجيَّة العلميَّة المتعارف عليها في تحقيق النصوص، والتي تلخَّصت في الخطوات الآتية:

- نسخ النصِّ من نسخته الخطِّيَّة الفريدة، وكتابته وَفق قواعد الإملاء الحديثة، وضبطه ضبطًا إعرابيًّا كاملًا، وتقويم الأخطاء اللغويَّة والعروضيَّة الواضحة والإشارة إليها في الحواشي.
- إضافة بعض المفردات التي يلتئم بها المعنى أو يستقيم بها الوزن بين معكوفين [ ].

- شرح المفردات اللغويَّة الغريبة في حواشٍ سفليَّة، مع الاقتصار على إيراد المعنى السياقيِّ الأدقِّ دون الإحالة التفصيليَّة إلى المعجم في كلِّ مرَّة.
- التعريف بالأعلام والأماكن الواردة في النصِّ تعريفًا موجزًا في الحواشي.

المطلب الثاني: النصُّ المحقَّق

«وقد أنشد الفاضل، الأديب الشاعر، الحاجُّ: مصطفى بن زكري الطرابلسيُّ، قصيدة في أوصافه الكريمة، فقال [من الخفيف]:

1. **آلَ بَيْتِ النَّبِيِّ حُبُّكُمُو لِلـ رُوحِ قُوتٌ، وَلِلْقُلُوبِ شِفَاءُ**
2. **لَمْ تَزَلْ فِيكُمُ السِّيَادَةُ وَالحُكْـ ـمُ وَالْحِلْمُ وَالتُّقَى وَالْوَفَاءُ[8]**
3. **كُلَّمَا زُفَّ لِلْجِنَانِ إِمَامٌ وَرِثَتْ نُورَ هَدْيِهِ الْأَبْنَاءُ**
4. **كَيْفَ يَخْشَى مُحِبُّكُمْ وَلَهُ بِابْـ ـنِ السَّنُوسِيِّ فِي الْمَعَادِ رَجَاءُ**
5. **الْإِمَامُ الْمَهْدِيُّ أَفْضَلُ مَنْ جَا دَتْ وَسَارَتْ بِسِيرِهِ الْأَنْبِيَاءُ**
6. **بَشَّرَتْنَا [بِهِ] الْأَحَادِيثُ، وَاشْتَا قَتْ إِلَيْهِ الْعُصُورُ وَالْأَنْحَاءُ**
7. **وَأَشَارَتْ إِلَى شَمَائِلِهِ غُرْ رُ الْمَعَالِي، وَقَرَّتِ الْعَلْيَاءُ[9]**
8. **نَسَبٌ يَنْتَهِي إِلَى الْحَسَنِ السِّبْـ ـطِ، وَهَدْيٌ نُوَّارُهُ الْقُدَمَاءُ[10]**
9. **رَبْعَةٌ، وَاسِعُ الْجَبِينِ، عَلَى أَيْـ ـمَنِ خَدِّهِ شَامَةٌ شَمَّاءُ[11]**
10. **أَزْهَرُ اللَّوْنِ، مُسْتَدِيرٌ مُحَيَّا هُ؛ فَلِلْبَدْرِ مِنْ سَنَاهُ حَيَاءُ[12]**
11. **أَفْلَجُ الثَّغْرِ، وَاسِعُ الْفَمِ، شَثْنُ الْـ ـكَفِّ، مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ جِفَاءُ[13]**

12. أَشْـــعَرُ الْحَـــاجِبَيْنِ، أَهْـــدَبُ، ذُو طَـــرْ ... فٍ كَحِيـــلٍ لَـــمْ تُمْلِـــهِ النَّجْلَـــاءُ[14]

13. يُوسُـــفِيُّ الْجَمَـــالِ، أَجْلَـــى أَشَـــمُّ ... أَخْمَـــصٌ؛ فِيـــهِ لِلْخَلَـــاءِ اجْتِلَـــاءُ[15]

14. حَسَـــنُ الْهَـــدْيِ فِـــي تَوَاضُـــعِهِ لِلْـــ ... ـلَـــهِ، سَـــيِّدٌ تَهَابُـــهُ الْعُظَمَـــاءُ

15. لَـــا يَهَـــابُ الْمُلُـــوكَ فِـــي جَانِـــبِ اللَّـــ ... ـــهِ، وَتَحْظَـــى بِقُرْبِـــهِ الضُّـــعَفَاءُ

16. عَابِـــدٌ زَاهِـــدٌ، تَقِـــيٌّ وَفِـــيٌّ ... حَيْـــثُ قَـــلَّ التُّقَـــى وَعَـــزَّ الْوَفَـــاءُ

17. خَاشِـــعٌ خَاضِـــعٌ، رَؤُوفٌ رَحِـــيمٌ ... مِـــنْ سَـــجَايَاهُ الْحِلْـــمُ وَالْإِغْضَـــاءُ[16]

18. حَـــافِظٌ وَاعِـــظٌ، حَـــرِيصٌ عَلَـــى الْأُمْـــ ... ـــمَـــةِ لَمَّـــا دَهَـــتْهُمُ الْـــأَهْوَاءُ

19. حَسَـــنُ السَّـــمْتِ وَالسَّـــكِينَةِ، يَعْلُـــو ... هُ وَقَـــارٌ وَهَيْبَـــةٌ وَحَيَـــاءُ

20. كَفُّـــهُ كَـــوْثَرٌ وَوَابِـــلُ إِحْسَـــا ... نٍ، وَوَيْـــلٌ عَلَـــى الْعِـــدَا وَوَبَـــاءُ[17]

21. سَلْسَـــبِيلٌ يَنْهَـــلُّ غَيْـــثُ غَوَادِيـــ ... ـــهِ، وَتَخْشَـــى أَكُفَّـــهُ الْهَيْجَـــاءُ[18]

22. وَهْـــوَ كَـــالْبَحْرِ؛ مِنْـــهُ يُسْـــتَخْرَجُ الـــدُّرْ ... رُ، وَلِلظَّـــالِمِينَ فِيـــهِ فَنَـــاءُ

23. جَـــاءَ فِـــي آخِـــرِ الزَّمَـــانِ وَلِلْكُفْـــ ... ـــرِ ظُهُـــورٌ، وَلِلْغَبَـــاءِ اعْتِـــدَاءُ

24. وَدَعَـــا بَعْـــدَ جَـــدِّهِ الْخَلْـــقَ لِلَّـــ ... ـــهِ؛ وَفِـــي الْخَلْـــقِ غَفْلَـــةٌ وَجَفَـــاءُ

25. فَمَحَـــا ظُلْمَـــةَ الضَّـــلَالِ، وَلِلْأَعْـــ ... ـــدَاءِ يَـــوْمٌ تَنْهَـــلُّ فِيـــهِ الـــدِّمَاءُ

26. وَإِذَا كَانَـــــتِ الْهِدَايَـــــةُ وَالْعَـــــوْ ـــــنُ مِـــــنَ اللهِ فَالْعِنَـــــادُ عَنَـــــاءُ

27. لِيُضِـــلَّ الْإِلَـــهُ قَوْمًـــا عَلَـــى عِلْـــ ـــــمٍ، وَيَهْـــدِي لِفَضْـــلِهِ مَـــنْ يَشَـــاءُ

28. يَـــا لَبَـــدْرٍ بِـــأَرْضِ (بَرْقَـــةَ) مَغْنَـــا هُ، وَقَـــدْ عَـــمَّ سِـــرُّهُ وَالسَّـــنَاءُ[19]

29. فَهْـــوَ كَالشَّـــمْسِ؛ لَـــيْسَ يَحْجُبُـــهُ الْبُعْـــ ـــــدُ، وَكَالصُّـــبْحِ؛ لَـــيْسَ فِيـــهِ مِـــرَاءُ

30. مَلَـــأَ الْـــأَرْضَ ذِكْـــرُهُ، فَلَـــهُ فِـــي كُـــلِّ قَلْـــبٍ جَلَالَـــةٌ وَاجْتِلَـــاءُ[20]

31. رَحْمَـــةٌ عَمَّـــتِ الْوُجُـــودَ؛ فَلِلَّـــ ـــــهِ عَلَـــى النَّـــاسِ شُـــكْرُهَا وَالثَّنَـــاءُ

32. قَـــامَ بِالْـــأَمْرِ؛ فَالْإِقَامَـــةُ وَالظَّعْـــ ـــــنُ وَطَـــيُّ الْفَلَـــا لَدَيْـــهِ سَـــوَاءُ[21]

33. وَدَعَـــاهُ إِلَـــى مُفَارَقَـــةِ (الْجَغْـــ ـــبُـــوبِ) أَمْـــرٌ لَـــمْ تَـــدْرِهِ الْأَغْبِيَـــاءُ[22]

34. إِنَّ لِلَّـــهِ فِيـــهِ سِـــرًّا، وَقَـــدْ حَنْـــ ـــنَـــتْ لِمَكْنُـــونِ سِـــرِّهِ الْأَرْجَـــاءُ

35. أَشْـــرَقَ الْغَـــرْبُ عَنْـــهُ، وَاشْـــتَاقَهُ الشَّـــرْ قُ، وَحَـــنَّ (الْحَطِـــيمُ) وَ(الْبَطْحَـــاءُ)[23]

36. فَاسْـــتَهَلَّتْ يَـــوْمَ الْقُـــدُومِ بِـــهِ (الْكُفْـــ ـــــرَةُ)، وَاسْتَبْشَـــرَتْ بِـــهِ الصَّـــحْرَاءُ[24]

37. وَكَـــأَيِّنْ مِـــنْ قَرْيَـــةٍ وَبِلَـــادٍ قَـــدْ طَـــوَى الْجَهْـــلُ ذِكْرَهَـــا وَالْجَلَـــاءُ

38. غَبَطَتْهَـــا مَشَـــارِقُ الْـــأَرْضِ مُـــذْ شَـــرْ رَفَهَـــا مِـــنْ سِـــرِّ اللِّقَـــاءِ سَـــنَاءُ

39. وَبَـــدَتْ فِيـــهِ لِلنَّبِـــيِّ إِشَـــارَا تٌ، فَمَـــا ذَا تَقُولُـــهُ الشُّـــعَرَاءُ[25]

40. غَيْـــرَ أَنِّـــي صَـــرِيعُ شَـــوْقٍ إِذَا مَـــا هَـــزَّهُ الْوَجْـــدُ شَـــاقَهُ الْإِنْشَـــاءُ

41. خَطَّـــهُ نَسِـــيمُ الْمَـــوَدَّةِ فِـــي الْقُـــرْ بَـــى، وَلِلْمُحِـــبِّ نِسْـــبَةٌ وَوَلَـــاءُ[26]

42. هَـــذِهِ نِسْـــبَتِي، وَغَايَـــةُ مَـــا أَرْ جُـــوهُ مُـــنْكُمْ تَوَجُّـــهٌ وَدُعَـــاءُ

المبحث الثالث: القراءة التحليليَّة والجماليَّة للنصِّ

المطلب الأوَّل: تجلِّيات الأوصاف النبويَّة في صورة الممدوح

إنَّ المتأمل في همزيَّة ابن زكري يدرك منذ الوهلة الأولى أنَّ الشاعر لم يكن يرسم صورة ظاهريَّة عابرة للممدوح، بل كان ينزع نحو استحضار الأنموذج الأسمى في الوجدان الإسلاميِّ، وهو صورة النبيِّ ﷺ بصفته الأصل الذي تتفرَّع عنه كمالات السلالة الطاهرة. وقد اتَّكأ الشاعر في ذلك على المشاكلة بين الأوصاف الخَلْقيَّة للسيِّد المهديِّ، وما روي في كتب الشمائل والسير من الأوصاف النبويَّة.

استهلَّ الشاعر وصفه ببيان القَدِّ والسيماء العامَّة، فقال:

رَبْعَةٌ، وَاسِعُ الْجَبِينِ، عَلَى أَيْـ ـمَنِ خَدِّهِ شَامَةٌ شَمَّاءُ

فوصف الممدوح بأنَّه (رَبْعة) –وهي صفة تدل على الاعتدال في القامة– استدعاء مباشر لما ورد في وصف النبيِّ ﷺ بأنَّه: «لَمْ يَكُنْ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ»[27]. وسَعة الجبين –التي تعني وضوح الجبهة وانبساطها وإشراقها– هي أيضًا من أوصافه ﷺ قال الإمام عليٌّ: «كان أجلى الجبين»[28]. ثم ينتقل الشاعر لوصف اللون والإشراق:

أَزْهَرُ اللَّوْنِ، مُسْتَدِيرٌ مُحَيَّا هُ؛ فَلِلْبَدْرِ مِنْ سَنَاهُ حَيَاءُ

وهنا يوظِّف الشاعر لفظة (أزهر) – وهو الأبيض المستنير– وهي اللفظة ذاتها التي وصف بها أنس بن مالك النبيَّ ﷺ بقوله: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ»[29]. ويتعمق الشاعر في تفاصيل الثغر واليدين، فيقول:

أَفْلَجُ الثَّغْرِ، وَاسِعُ الْفَمِ، شَثْنُ الْـ ـكَفِّ، مَا بَـيْنَ مَنْكِبَيْـهِ جَفَـاءُ

في هذا البيت، يجمع الشاعر بين أربع صفات نبويَّة شهيرة: **(الفَلَج)** –وهو انفراج ما بين الثنايا بجمال لا نُكر فيه– وقد وُصف النبيُّ ﷺ بأنه «أفلج الثنايا»[30]. و**(سَعة الفـم)**؛ وهي صفة من ممدوحات الرجال الدالَّة على فصاحة النطق وقوَّة الخطابة والبيان، وهي استلهام مباشر لما ورد في صفته ﷺ بأنه كان «**ضَـلِيعَ الْفَمِ**»[31]. و**(شَثَنُ الكفِّ)** وهي صفة تدلُّ على البأس والقوَّة، وقد ورد في الشمائل: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ»[32]. و**(الجفاء بين المنكبين)** –ويريد به التباعد والاتِّساع، وهو تعبير عن عِظَم المُشاش

وضخامة الهيكل- هو استحضار مباشر لما ورد في الصحيحين من وصفه ﷺ بأنَّه كان «بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ»[33].

ويستمرُّ الشاعر في استقصاء ملامح الوجه، مركِّزًا على جمال العينين والحاجبين، فيقول:

أَشْعَرُ الْحَاجِبَيْنِ، أَهْدَبُ، ذُو طَرْ ف كَحِيلٍ لَمْ تُمْلِهِ النَّجْلَاءُ

في هذا البيت، يورد الشاعر ثلاث صفات نبويَّة ثابتة في كتب الشمائل: (الزَّجَج) التي أشار إليها بقوله: **(أَشْعَرُ الْحَاجِبَيْنِ)** بمعنى طول الحاجبين ووفور شعرهما، وقد وُصف ﷺ بأنَّه كان «أَزَجَّ الْحَاجِبَيْنِ»[34]. وأشار إلى صفة طول أشفار العينين بقوله: **(أَهْدَب)**؛ فعن الإمام عليٍّ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَهْدَبَ الأَشْفَارِ»[35]. وصفة **(الطَّرْف الكحيل)**؛ وهو الأكحل خلقة دون تكلُّف، فعن جابر بن سمرة قال: «كُنْتُ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ: أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ وَلَيْسَ بِأَكْحَلَ»[36]. وختم الشاعر البيت ببراعة حين قال: **(لَمْ تُمْلِهِ النَّجْلَاءُ)**؛ وهي مشاكلة لطيفة بين خطِّ الكحل والإملاء، ليؤكِّد أنَّ هذا الجمال موروث قدسيٌّ لا يُنال بالصنعة.

ويرتقي ابن زكري بالوصف ليصل به إلى ذروة التشبيه الجماليِّ:

يُوسُفِيُّ الْجَمَالِ، أَجْلَى أَشَمٌّ أَخْمَصٌ؛ فِيهِ لِلْخَلَاءِ اجْتِلَاءُ

إنَّ وصف الجمال بـ (اليوسفيِّ) هو إشارة إلى الكمال البشريِّ في الصورة، لكنَّه يربط هذا الجمال بصفة (الخمص) ويوجِّهها وجهة روحيَّة بقوله «فيه للخلاء اجتلاء»؛ إشارة إلى خمص البطن من الجوع، فكأنَّ جمال المهديِّ الظاهر ما هو إلَّا انعكاس لصفاء باطنه وخلوِّه من حظوظ النفس.

ويمكننا القول إنَّ ابن زكري -من خلال هذا الحشد من الأوصاف (أفلج، أزهر، ربعة، شثن، أخمص) - نجح في تقديم صورة الوليِّ المرشد الذي تجتمع فيه طهارة النسب مع قداسة الوصف، محقِّقًا بذلك غرضين هما المدح الخالص، وتسويغ انتسابه إلى هذا السيِّد الشريف.

وبذلك، لا يقف ابن زكري عند حدود المحاكاة الوصفيَّة، بل يصهر هذه الأوصاف في بوتقة واحدة ليقدِّم صورة الوراث المحمَّديِّ؛ والجمع بين صفات الجلال والجمال؛ مثل (شثن الكف) الدالَّة على القوَّة والمهابة، و(أزهر اللون) الدالَّة على الرقَّة والضياء، يعكس طبيعة المنهج السنوسيِّ الذي يجمع بين (الجهاد) و(الإصلاح الروحيِّ).

المطلب الثاني: الفضاء المكانيُّ ودلالات الهجرة السنوسيَّة

واكب الشاعر التحوُّل التاريخيَّ الكبير في مسيرة المهديِّ السنوسيِّ، المتمثِّل في الهجرة من الجغبوب إلى الكُفرة، مصوِّرًا إيَّاها حدثًا عميقًا يتجاوز التفسيرات الماديَّة السطحيَّة. فقد كانت الجغبوب تمثِّل العاصمة العلميَّة

والروحيَّة للطريقة السنوسيَّة، بيد أنَّ الشاعر يلمِّح إلى أنَّ انتقال الإمام عنها لم يكن تخلِّيًا ولا فرارًا، بل كان استجابة لتقدير ربَّانيٍّ وإلهام لا يدركه إلَّا أولو البصيرة، وفي ذلك يقول:

وَدَعَاهُ إِلَى مُفَارَقَةِ (الْجَغْـ ـبُوبِ) أَمْرٌ لَمْ تَدْرِهِ الْأَغْبِيَاءُ
إِنَّ لِلَّهِ فِيهِ سِرًّا، وَقَدْ حَنْـ ـنَتْ لِمَكْنُونِ سِرِّهِ الْأَرْجَاءُ

يشير الشاعر هنا بلفظة «الأغبياء» إلى أولئك الذين قصرت مداركهم عن فقه مآلات الأمور، فاستنكروا ترك المركز المستقِرِّ في الجغبوب والتوغُّل في قفار الكُفرة. والتحليل التاريخيُّ يثبت بُعد نظر الإمام؛ فقد كان يهدف إلى تأمين عمق استراتيجيٍّ للدعوة بعيدًا عن ضغوط القوى الاستعماريَّة[37]. وابن زكري بصياغته هذه يمنح هذا الانتقال صبغة الهجرة الفاتحة، مستلهمًا الأنموذج النبويَّ في الانتقال من ضيق المحاصرة إلى سَعة الفتح.

ثم ينتقل الشاعر لوصف واحة الكُفرة لحظة قدوم الممدوح، في صورة بيانية تمنح الجماد روحًا وشعورًا:

فَاسْتَهَلَّتْ يَوْمَ الْقُدُومِ بِـهِ (الْكُفْـ ـرَةُ)، وَاسْتَبْشَرَتْ بِهِ الصَّـحْرَاءُ

وهنا يجعل الشاعر من المكان كائنًا مبتهجًا بحلول المهديِّ فيه؛ فاستهلال الكفرة واستبشار الصحراء صور تعكس بركة الممدوح التي حوَّلت الأرض الموات إلى مزار تهفو إليه النفوس. ويربط الشاعر بين هذا القدوم والفتح العلميِّ؛ فكم من بلاد طوى الجهل ذكرها، فأضحت بفضل المركز السنوسيِّ الجديد محطَّ غبطة المشارق والمغارب:

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ وَبِلَادٍ قَدْ طَوَى الْجَهْلُ ذِكْرَهَا وَالْجَلَاءُ
غَبَطَتْهَا مَشَارِقُ الْأَرْضِ مُذْ شَرْ رَفَهَا مِنْ سِرِّ اللِّقَاءِ سَنَاءُ

ولم يحصر الشاعر بركة الممدوح في بقعة جغرافيَّة واحدة، بل جعلها قطبًا تنجذب إليه المراكز الروحيَّة الكبرى في العالم الإسلاميِّ، فربط بين (الكُفرة) وبين (الحطيم والبطحاء) في مكَّة المكرَّمة برابطة الشوق والوحدة الروحيَّة:

أَشْرَقَ الْغَرْبُ عَنْهُ، وَاشْتَاقَهُ الشَّرْ قُ، وَحَنَّ (الْحَطِيمُ) وَ(الْبَطْحَاءُ)

ويختم الشاعر ببيان تمكُّن الإمام من تطويع المكان وتذليل مشاقِّه، وهي صفة موروثة عن جدِّه ﷺ في قطع الفيافي لنشر الدين:

قَامَ بِالْأَمْرِ؛ فَالْإِقَامَةُ وَالظَّعْـ ـنُ وَطَيُّ الْفَلَا لَدَيْهِ سَوَاءُ

فالمهديُّ الذي قضى حياته مرتحلًا بين الزوايا (من البيضاء إلى أبي قُبيس إلى الجغبوب ثمَّ الكفرة فقرو) لم يكن المكان لديه عائقًا، بل صار طي الفلا ديدنه، فاستوت عنده الإقامة والظعن في سبيل إعلاء كلمة الله وتحصين حدود بلاد المسلمين[38].

المطلب الثالث: الخصائص الفنِّيَّة واللغويَّة في الهمزيَّة

تتجلَّى براعة ابن زكري في هذا النصِّ من خلال قدرته على المزج بين فخامة القصيدة التقليديَّة، وعمق التجربة الروحيَّة السنوسيَّة، محقِّقًا توازنًا دقيقًا بين جزالة اللفظ وعمق المعنى. ويمكن رصد أهمِّ ملامح هذه الخصائص في النقاط الآتية:

أوَّلًا: وحدة البناء وتدرُّج المقاصد

نختتم التحليل الجماليَّ بالوقوف على بناء القصيدة؛ حيث اعتمد ابن زكري تدرُّجًا ينتقل منالعامِّ إلى الخاصِّ؛ فقد استهلَّ نصَّه بالأصل الكلِّيِّ وهم آل البيت ومكانتهم في الوجدان، ثمَّ ضيَّق الدائرة لتستقرَّ عند الفرع الوارث والمقصود بالمدح وهو الإمام المهديُّ السنوسيُّ، لينتهي في الختام بالثمرة المرجوَّة وهي الذات الشاعرة وعلاقتها بالممدوح. ويعكس هذا التدرُّج المنهجيُّ –الذي يربط بين الأصل والفرع والثمرة– بناءً محكمًا يهدف إلى إثبات الولاء والنسب الروحيِّ، بحيث يغدو الشاعر في نهاية القصيدة جزءًا من المنظومة النورانيَّة التي بدأ بذكرها في المطلع، محقِّقًا بذلك وحدة موضوعيَّة تربط أوَّل النصِّ بآخره.

ثانيًا: البناء الموسيقيُّ والتركيب الوصفيُّ

اختار الشاعر لقصيدته بحر الخفيف وقاعدته العروضيَّة: (فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن)، وهو بحر يجمع بين الرشاقة والوقار، ما يجعله وعاءً مناسبًا لغرضي المدح والوصف. أمَّا رويُّ القصيدة فهو الهمزة المضمومة المشبعة بالمدِّ، وهو خيار فنِّيٌّ ذو جلال صوتيٍّ؛ فصوت الهمزة المضمومة بعد الألف يوحي بالانتهاء والامتلاء، وكأنَّ الشاعر يغلق كلَّ بيت بصيحة إعجاب أو إقرار بعظمة الممدوح (وفاءُ، علياءُ، حياءُ). وهذا النوع من القوافي يتطلَّب نَفَسًا طويلًا وقدرة على تطويع اللغة، وهو ما برع فيه الشاعر[39].

ويُلحظ في بنية النصِّ الاعتماد المكثَّف على أسلوب التَّعداد بالصفات المشتقَّة؛ حيث حشد الشاعر سلسلة من أسماء الفاعلين وصيغ المبالغة في تتابع وصفيٍّ محكم (عابد، زاهد، تقيٌّ، وفيٌّ، خاشع، خاضع، رؤوف، رحيم، حافظ، واعظ، حريص)، وهذا الأسلوب ليس رصًّا للمترادفات أو حشوًا لغويًّا، بل هو بناء تراكميٌّ مقصود؛ يهدف من خلاله الشاعر إلى تقديم صورة الإمام الجامع الذي استوفى شروط الهداية والكمال الإنسانيِّ بصفات ثابتة ومستقرَّة (دلَّ عليها اسم الفاعل) ومبالغ في تحقُّقها (دلَّت عليها صيغ المبالغة)[40]، وبذلك تتحوَّل القصيدة من مديح عاطفيٍّ إلى تقرير وصفيٍّ لولاية الممدوح واستحقاقه لوراثة المقام المحمَّديِّ.

ثالثًا: المعجم الشعريُّ والتناصُّ

يتوزَّع معجم القصيدة بين حقلين دلاليَّين متكاملين: حقل الروحانيَّة واللطف، ويظهر في كلمات مثل: (قوت، شفاء، نسيم المودَّة، سليل، سلسبيل، أريج)، وهذا المعجم يصوِّر الجانب الإحسانيَّ في شخصيَّة الممدوح. وحقل القوَّة والسيادة، ويظهر في كلمات مثل: (شثن الكفِّ، الهيجاء، فناء، تنهلُّ الدماء، طيُّ الفلا). إنَّ براعة ابن زكري تكمن في الجمع بين الأضداد؛ حيث يصوِّر الممدوح غيثًا للمحبِّين ووباء على الأعداء، وهو توظيف لأسلوب المقابلة الذي يرسِّخ صورة الوليِّ الكامل القادر على الجمع بين صفتي الجمال والجلال.

ولا يقف معجم ابن زكري عند حدود اللغة الشعريَّة المجرَّدة، بل يتجاوزها إلى ظاهرة التناصِّ مع القاموس القرآنيِّ؛ فقد استعار الشاعر الألفاظ القرآنيَّة ليصبغها على ممدوحه تأكيدًا لمقام الوراثة المحمَّديَّة؛ فاستخدم مفردات مثل: (قوت، وشفاء، وهدى) ليجعل من مودَّة الممدوح علاجًا للقلوب، مقتفيًا أثر الوصف القرآنيِّ للوحي في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: 44]، كما ارتقى بالوصف حين استعار أسماء من النعيم الأخرويِّ كـ(الكوثر، والسلسبيل) ليصوِّر فيض كرم الممدوح وعذوبة أخلاقه. وتظهر براعة ابن زكري جليَّة في قوله: «رَحْمَةٌ عَمَّتِ الْوُجُودَ» حيث استلهم ظلال الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107] ليؤكِّد أنَّ المهديَّ –باعتباره وارثًا نبويًّا– قد حاز نصيبًا من تلك الرحمة العامة نفعًا وإرشادًا.

رابعًا: الصورة البيانيَّة

يهيمن التشبيه على القصيدة لغرض التوضيح والتقرير؛ مثل قوله: «**فَهْوَ كَالشَّمْسِ**» و«**وَهْوَ كَالْبَحْرِ**». لكنَّ الشاعر يرتقي إلى الاستعارة المكنيَّة حين يقول: «**خَطَّهُ نَسِيمُ الْمَـوَدَّة**»، حيث جعل المودَّة نسيمًا يكتب، وفي ذلك تشخيص للعواطف الوجدانيَّة. كما أنَّ قوله «**لَمْ تُمْلِهِ النَّجْلَاءُ**» يعدُّ من باب المشاكلة البديعة التي تربط بين الكحل والكتابة، وهي التفاتة فنِّيَّة تدلُّ على تمكُّن ابن زكري من فنون البلاغة.

خامسًا: المعارضة الشعريَّة والتأثير

إذا كان ابن زكري قد أفرغ همزيَّته في قالب سنِّيٍّ صوفيٍّ يَمْتَحُ من معين الشمائل والآثار، فإنَّ بناءها الإيقاعيَّ والمعجميَّ يكشف في الوقت نفسه عن صلة بيِّنة بالتراث الهمزيِّ في المديح النبويِّ، وعلى رأسه همزيَّة البوصِيريِّ التي مطلعها:

كَيْفَ تَرْقَى رُقِيَّكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءً مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ(41)

فاختيار بحر الخفيف، والالتزام بقافية الهمزة المضمومة، واستدعاء الشمائل الخَلقيَّة والخُلقيَّة، كلُّها عناصر تضع نصَّ ابن زكري في سياق المعارضة الإحيائيَّة للقصيدة البوصِيريَّة؛ غير أنَّه حوَّل مركز الثناء من الذات النبويَّة إلى الامتداد السنوسيِّ الذي يراه وارثًا للنور المحمَّديِّ، فصار الممدوح مشبَّهًا به من حيث الشبه الشمائليُّ والروحيُّ.

ثمَّ ما لبثت هذه الهمزيَّة أن تحوَّلت بدورها إلى نصٍّ مُؤثِّرٍ استدعى المعارضة الصريحة من قِبَل أمير البيان شكيب أرسلان، الذي صرَّح بأنَّه عارضها من البحر والقافية، مستهلًّا قصيدته بقوله:

هَلْ تُرَى يَنْتَهِي عَلَيْهِ الثَّنَاءُ سَيِّدٌ يَنْتَهِي إِلَيْهِ السَّنَاءُ(42)

فجاءت معارضته محافِظة على بحر الخفيف وقافية الهمزة، ومكثِّفة البناء الإيقاعيَّ ذاته، مع توسيع الدائرة الدلاليَّة لتشمل البعد النهضويَّ والجهاديَّ للطريقة السنوسيَّة. وعلى هذا، يمكن النظر إلى همزيَّة ابن زكري بوصفها حلْقة وُسطى في سلسلة تناصِّيَّة ممتدَّة، تبدأ بالأنموذج الأعلى عند البوصِيريِّ، ثمَّ تُعاد صياغته في السياق السنوسيِّ الليبيِّ، قبل أن تتجدَّد في خطاب إصلاحيٍّ عربيٍّ عند أرسلان؛ وهو ما يمنح القصيدة قيمة أدبيَّة تتجاوز ظرفها التاريخيَّ إلى فضاء التأثير والتداول في أدب النهضة.

الخاتمة

في ختام هذا البحث الذي تناول بالتحقيق والدراسة (همزيَّة مصطفى بن زكري في أوصاف الإمام المهديِّ السنوسيِّ)، خلُصت الدراسة إلى جملة من النتائج العلميَّة والموضوعيَّة، أبرزها:

- أنَّ هذه الهمزيَّة تمثِّل حلْقة مفقودة في ديوان الشاعر المطبوع، وتفرُّد المخطوط بحفظها يجعل منها وثيقة أدبيَّة وتاريخيَّة نادرة، تؤكِّد صلة أدباء الحواضر بمركز السنوسيَّة في أعماق الصحراء.
- كشف التحليل الجماليُّ أنَّ الشاعر اعتمد المشاكلة بين أوصاف الممدوح والشمائل النبويَّة المأثورة؛ ما نقل النصَّ من إطار المديح الفرديِّ العابر إلى إطار المديح المقاميِّ الذي يرسخ الشرعيَّة الروحيَّة والوراثة المحمَّدية للممدوح.
- أظهرت الدراسة أن المكان في القصيدة (الجغبوب، الكُفرة، برقة) كان فضاءً رمزيًّا يعكس حركة الإصلاح والتحصُّن الاستراتيجيِّ ضدَّ التغلغل الاستعماريِّ، حيث صوَّر الشاعر ارتحال الإمام بوصفه سرًّا إلهيًّا وضرورة شرعيَّة.
- أثبتت الدراسة براعة الشاعر في تطويع لغة جزلة للتعبير عن تجرِبة وجدانيَّة صوفيَّة، مع قدرة جليَّة على توظيف الصفات المشتقَّة والمحسنات البديعية دون تكلُّف، ما جعل النصَّ أنموذجًا رفيعًا لمدائح الأعلام في الأدب الليبيِّ الحديث.
- كشفت القصيدة عن عمق الولاء الروحيِّ الذي كانت تكنُّه النخبة المثقَّفة في طرابلس للمرجعيَّة السنوسيَّة، ما يعزِّز فكرة وحدة النسيج الاجتماعيِّ والفكريِّ للقطر الليبيِّ في تلك الحقبة التاريخية الحرجة.
- بيَّنت الدراسة أنَّ الهمزية لم تتشكَّل في فراغ فنِّيٍّ، بل انتظمت ضمن تقليد الهمزيَّة (سلسلة التناصِّ الهمزيِّ) في المديح الروحيِّ؛ إذ أفادت من أنموذج البوصِيريِّ في بنائها الموسيقيِّ واستدعاء الشمائل، وفي الوقت نفسه، دلّت معارضة شكيب أرسلان لها، على ما بلغته من ذيوع وتأثير تجاوز البيئة المحلِّيَّة إلى الفضاء العربيِّ.

الملاحق

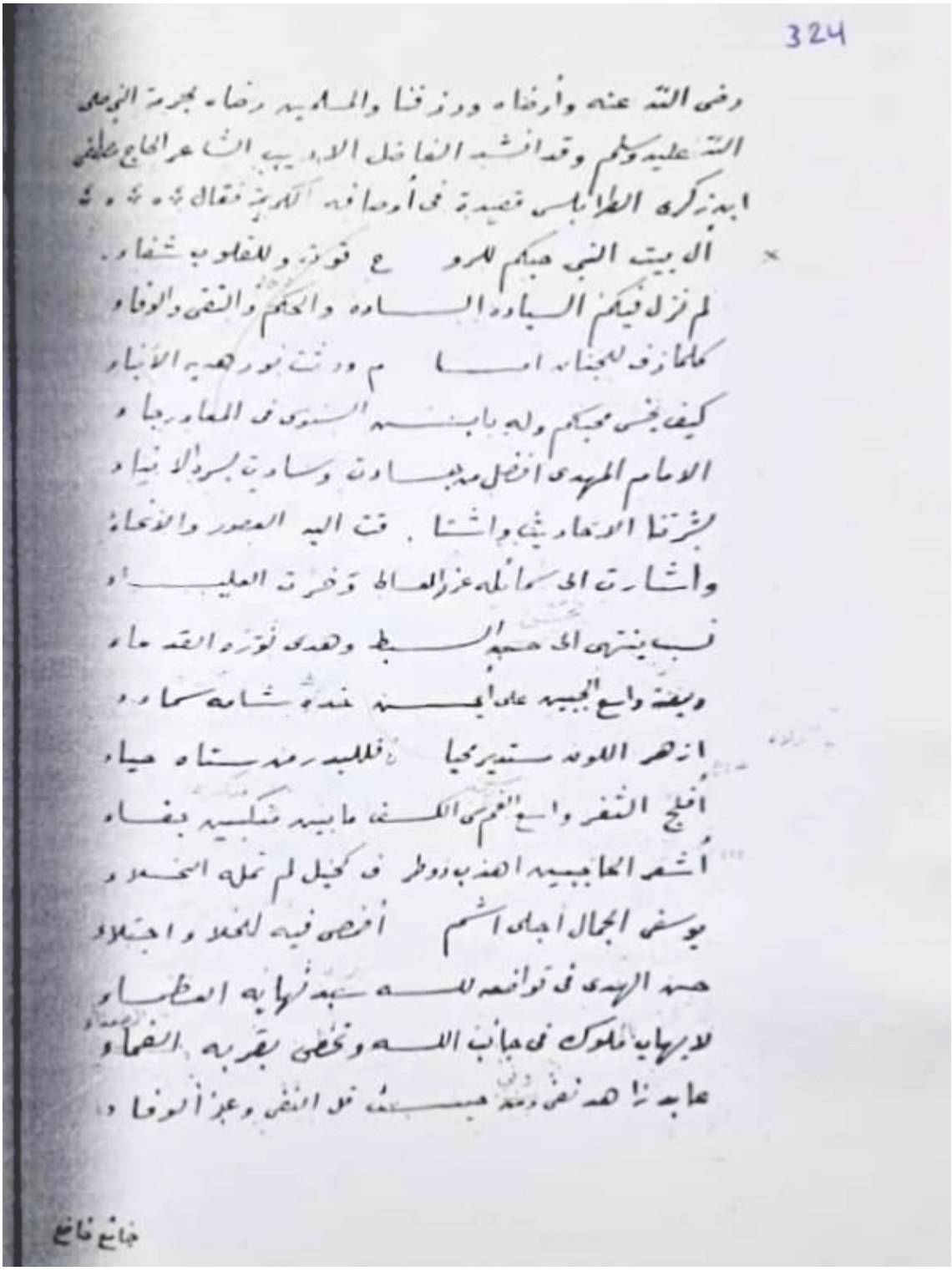

324

رضي الله عنه وأرضاه وزرقنا والمسلمين رضاه بحرمة النبي
الله عليه وسلم وقد انشد الفاضل الأديب الشاعر الحاج علي
ابن ذكره الطرابلسي قصيدة في أوصافه الكريمة فقال رحمه الله

آل بيت النبي حبكم للمرو ... ع فوز وللقلوب شفاء
لم تزل فيكم السيادة والحكم والتقى والوفاء
كلما زف للجناب امرؤ ... ورثت نور وجهه الآباء
كيف يخشى مجدكم وله بابنه السنوي في المعالي رجاء
الإمام المهدي أفضل من جا دت وسادت بسره الأنبياء
بشرتنا الأحاديث واشتا قت اليه العصور والأنحاء
واشارت الى مسائله عز المعالي وفخرت العلياء
فبه ينتهي الى جده السبط وجده فوز القداء
وبفضل واسع الجبين على أيمنه منه شامة سوداء
إذ هو الليث ستير مجا فللبدر من ستاه حياء
أفلج الثغر واسع الفم كالكف ما بيمنه كفيه بفاء
أشم الحاجبين الهدب ادوط في كحيل لم تملأ الحمراء
يوسفي الجمال أجلى أشم أفضى فيه للمجد واجتلاء
حمد الرهدي في توأمه لله حمد ثوابه العظماء
لا برحت ملوك في جانب الله وتحظى بقربه العلماء
عابه ناهد نفي ومنه حيث في النفي وعز الوفاء

جامع فاضع

صورة الصفحة الأولى من القصيدة المخطوطة

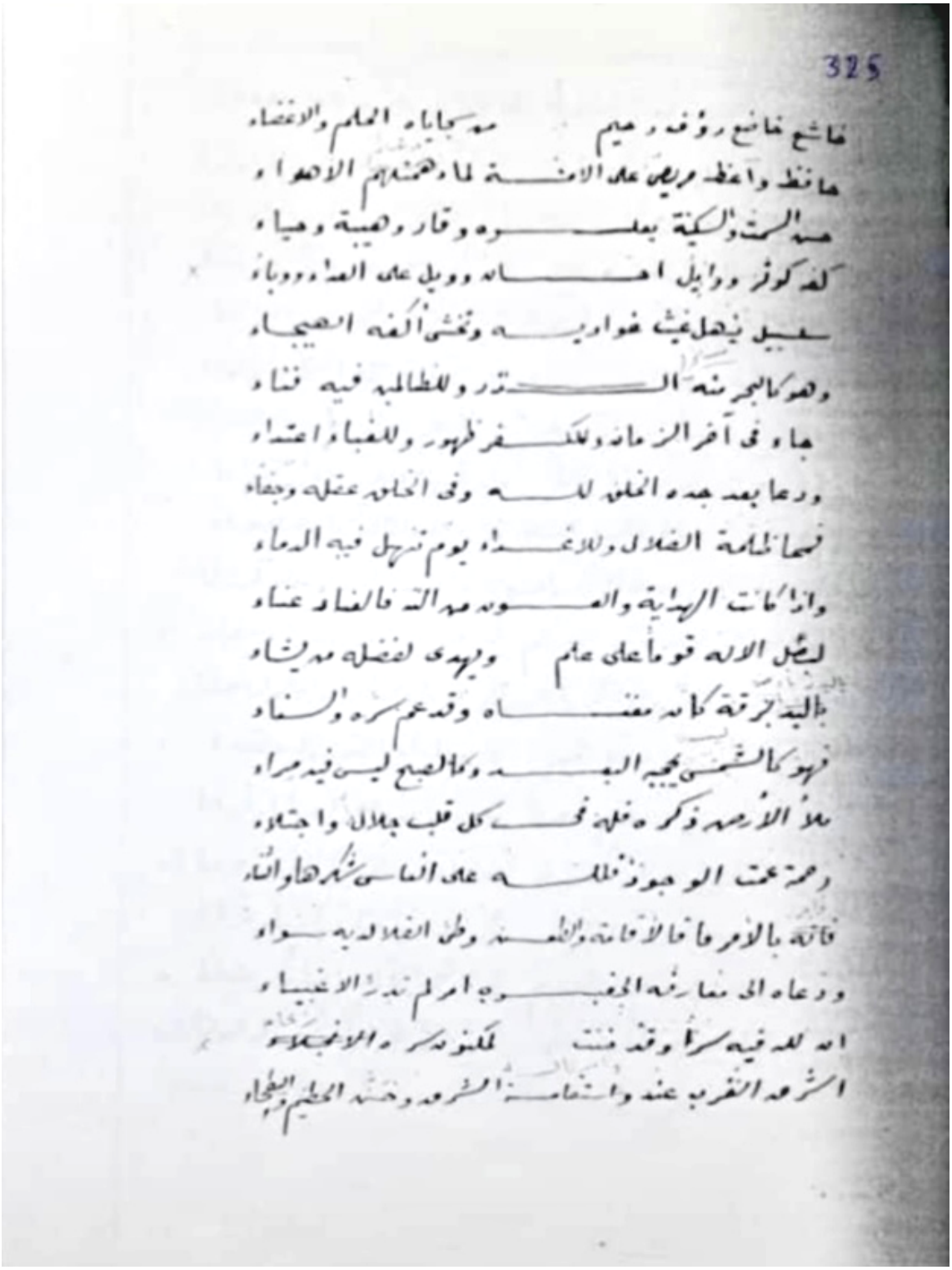

325

عاشع خاضع رؤف رحيم ... مد جاياه العلم والاغضاء
حافظ واعظ مربي على الامة لما دهمتهم الاهواء
مسه الست والسكينة بعلـ ... ـوه وقار وهيبة وحياء
له كوثر وويل لاعـ ... ـاده وويل على العداء ووباء
سيل يطغى غيث غواديه وتغشى ألفه الصحراء
وهو كالبحر منه الـ ... ـدر وللظالمين فيه فناء
جاء في آخر الزمان ولكن ظهوره وللغباء اعتداء
ودعا بعد جده المصطفى لله وفي الخلق عقله وذكاء
فسما ظلمة الضلال وللغـ ... ـي يوم تنزل فيه الدماء
واذا كانت الهداية والعـ ... ـود من الله فالفساد عناء
ليس الا له قوما على علم ويهدي لفضله من يشاء
بالبديهة كأنه مفطـ ... ـور وقد عم سره والسناء
فهو كالشمس يجلي البصـ ... ـر وكالصبح ليس فيه مراء
ملأ الأرض ذكره فله فخـ ... ـر على كل قلب جلال واجتباه
رحمت الوجود فلله على الناس شكرها والثناء
فاته بالأمر فالاقامة والطعـ ... ـن وطن الضلال به سواء
ودعاه الى معارفه الجيـ ... ـوب ام لم تدن الانبياء
انه لله فيه سرا وقد فتـ ... ـت لمكنون سره الاصطفاء
اشرعه القرب عنده واستقامة الشرعة وحده الحكيم البطحاء

صورة الصفحة الثانية من القصيدة المخطوطة

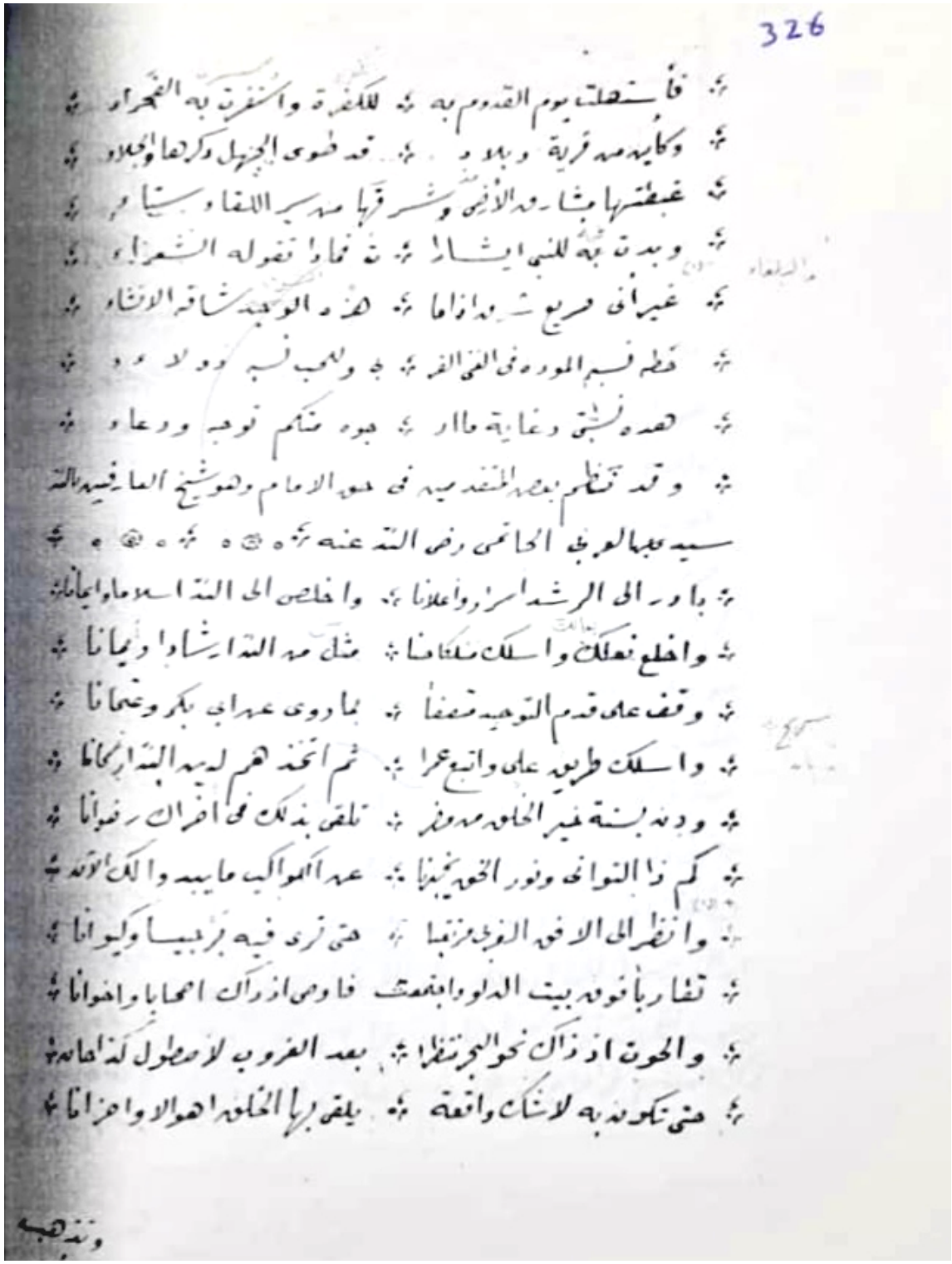

صورة الصفحة الثالثة من القصيدة المخطوطة

الحواشي:

[1] يُنظر: السنوسيُّ، محمَّد المهديُّ. المولد الشريف النبويُّ: 23–31.

[2] أرسلان، شكيب. حاضر العالم الإسلامي: 162/1، ويُنظر: الحبوش، يوسف عبد الهادي: عُمر المختار الحقيقة المغيَّبة: 41.

[3] السنوسيُّ، أحمد الشريف. الشموس النورانيَّة العرفانيَّة الإشراقيَّة في بيان أعلام الطريقة السنوسيَّة الإدريسيَّة المحمَّديَّة (مخطوط).

[4] الرحلة الصحراويَّة، نقلًا عن: الحبوش، عُمر المختار الحثيثة المغيَّبة: 47.

[5] العظم، صادق مؤيَّد. رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا: 112 – 114.

[6] يُنظر: جبران، محمَّد مسعود. مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح أدبه وتحقيق ديوانه: 27 وما بعدها؛ وابن مصطفى، محمَّد كامل. الكنَّاشة (مخطوط): 57، 62؛ وابن زكري، مصطفى، ديوانه: 135– 137.

[7] يُنظر: صور المخطوط في الملاحق.

[8] في المخطوط: «السيادة السادة»، بزيادة «السادة».

[9] «الغُرُّ»: جمع أغرّ، وهو الأبيض، ويُطلق على صفوة الأشياء أو خيارها وأفضلها؛ أي: أشارت أفضل وأشرف المكارم والفضائل إلى شمائله. «قَرَّت»: بمعنى أقرَّت: وافقت؛ أي أنَّ المعالي أشارت والعلياء أقرَّت.

[10] في المخطوط: «حسن». وفيه: «وهدى نوره». «وَهَدْيٌ»؛ أي: طريقة ومسلك. «نُوَّارُهُ» أي: مناره المضيء ومصدر استمداده هم «الْقُدَمَاءُ» من السلف الصالح، حيث عادت السنوسيَّة بالتصوُّف إلى منابعه الصافية وأصوله النقيَّة.

[11] «رَبْعَةٌ» صفة للشخص، تدلُّ على أنَّه متوسِّط القامة، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المفرط. «شَامَةٌ»: علامة أو نقطة سوداء. «شَمَّاء»: مرتفعة أو ذات شرف.

[12] «أَزْهَرُ اللَّوْنِ»: لونه أبيض مشرب بحمرة، أو مُضيء ومشرق. «سَنَاهُ»: ضوؤه ولمعانه.

[13] «أَفْلَجُ الثَّغْرِ»: الثغر: الأسنان؛ أي: أنَّ بين ثناياه فُرَج. «شَثْنُ الْكَفِّ»: غليظه، إشارة إلى القوَّة والشدَّة. «جَفَاءُ»: بُعد وسَعة.

[14] في المخطوط: «أهذب»، تصحيف. والأهدب: طويل أهداب العينين. «النَّجْلاء»: الحسناء واسعة العينين. والمعنى: أنَّ طرف الممدوح أكحل، لا تملك مثله النجلاء، ولأنَّ الاكتحال خطٌّ بالأساس جاء بلفظة الإملاء للمشاكلة.

[15] «أَجْلَى»: واسع الجبين. «أَشَمٌّ»: مرتفع الأنف أو مستويه (صفة الأنف الأقنى). «أَخْمَصٌ فِيهِ لِلْخَلَاءِاجْتِلَاءُ»: الخَمَص: خلاء البطن وضموره؛ يريد: فيه لخلاء البطن وضموره وضوح.

[16] في المخطوط: «رؤف»، وهي لغة في «رؤوف» قرئ بها في السبع، ولكن ينكسر بها الوزن. «سَجَايَاهُ»: جمع سجيَّة؛ أي: طبائعه وصفاته الفطريَّة.

[17] في المخطوط: «العداء»، ولا يستقيم به الوزن. «وَابِلُ»: مطر غزير.

[18] «سَلْسَبِيلٌ»: الشراب السهل المرور في الحلق؛ لعذوبته. «غَوَادِيهِ»: جمع غادية، وهي السحابة التي تمطر في الصباح. «الْهَيْجَاءُ»: الحرب والقتال.

[19] في المخطوط: «برقة كان»، بزيادة «كان» ولا يستقيم به الوزن. «مَغْنَاهُ»: موضع إقامته ومنزله. وبرقة: إقليم عريق شمل قديمًا المنطقة بين الإسكندريَّة وإفريقيَّة، وعُرف بمدنه الخمس (بنتابلس). وفي العصر الحديث يمتدُّ من السلُّوم شرقًا إلى الوادي الأحمر غربًا. نال استقلاله عام 1949م (الدولة العربية الثامنة)، ثمَّ توحَّد مع طرابلس وفزَّان عام 1951م في المملكة الليبيَّة المتَّحدة بقيادة الملك إدريس السنوسيِّ. يُنظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان: 388/1؛ والأشهب، محمَّد الطيِّب، برقة العربية أمس واليوم: 21 وما بعدها.

[20] «اجْتِلَاءُ»: الكشف والظهور.

[21] «طَيُّ الْفَلَا»: قطع المسافات الطويلة في الصحراء (في إشارة إلى أسفاره الطويلة بين برقة والحجاز والجغبوب والكُفرة وتشاد).

[22] «الجغبوب»: واحة تقع جنوب شرق طبرق (285 كم). كشفت نقوشها القديمة عن استيطان قبائل (التحنو، والتمحو، والليبو، والمشوش) لها، وكانت محطَّة دينيَّة وتجاريَّة هامَّة في العصور الإغريقيَّة والرومانيَّة. أصابها الخراب وهجرها سكَّانها بعد تغيُّر مسارات القوافل، حتَّى اختارها الإمام محمَّد بن عليٍّ السنوسيُّ مقرًّا له عام 1856م؛ فحوَّلها بزاويته الكبرى إلى منارة علم وهداية، ومعهد لتخريج كبار الدعاة والعلماء، وأحيا مواتها باستنباط العيون وغرس الجنان، وظلَّت تؤدِّي رسالتها الحضاريَّة حتَّى طالتها يدُ العبث عام 1984م. يُنظر: شلُّوف، عبد السلام، معجم المواقع والوقائع الليبيَّة: 246–250، وشكري، محمَّد فؤاد، السنوسيَّة دين ودولة: 36، 37.

[23] «الْحَطِيمُ»: بناء قبالة الميزاب من خارج الكعبة. «وَالْبَطْحَاءُ»: مكَّة المكرَّمة.

[24] «الكُفرة»: واحة كبرى جنوب شرق ليبيا، تُعدُّ من أمنع المعاقل الصحراويَّة. استوطنتها قديمًا قبائل (التَّبُو)، ثمَّ دخلت طورًا حضاريًّا حين اتَّخذها الإمام محمَّد المهديُّ السنوسيّ مقرًّا له عام 1895م، فأنشأ فيها (زاوية التاج) لتكون عاصمة روحيَّة وعمقًا استراتيجيًّا. ظلَّت الكُفرة قلعة للمقاومة وعصب إمداد للمجاهدين حتَّى سقوطها بيد الطليان عام 1931م بعد قصف جويٍّ عنيف، وتلتها المأساة المعروفة بـ (هجرة الكُفرة) التي نزح فيها السكَّان عبر الصحراء نحو دول الجوار. يُنظر: الدجاني، أحمد صدقي، الحركة السنوسيَّة نشأتها ونموُّها في القرن التاسع عشر: 145؛ وبعيُّو، مصطفى، المختار في تاريخ ليبيا: 156؛ والتلِّيسي، خليفة، معجم معارك الجهاد: 412.

[25] في المخطوط: «إيشارات»، والصواب ما أثبتناه.

[26] في المخطوط: «في القي القربي»، بزيادة «القي»، ولا يستقيم بها الوزن.

[27] ابن أبي خيثمة، التاريخ الكبير (السفر الثاني): 2/ 142. ويُنظر: الترمذيُّ، محمَّد بن عيسى، الشمائل المحمَّديَّة: 38.

[28] الترمذيُّ، الشمائل المحمَّديَّة: 41.

[29] البخاريُّ، محمَّد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه، رقم (3547). ومسلم، أبو الحسين ابن الحجَّاج، المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل، رقم (2330).

[30] الترمذيُّ، الشمائل المحمَّديَّة: 42.

[31] مسلم، المسند الصحيح المختصر، رقم (2339).

[32] الترمذيُّ، الجامع الكبير، رقم (3635). ويُنظر: الترمذيُّ، الشمائل المحمَّديَّة: 38.

[33] البخاريُّ، الجامع المسند الصحيح المختصر، رقم (3551). ومسلم، المسند الصحيح المختصر، (2337).

[34] الترمذيُّ، الشمائل المحمَّديَّة: 41.

[35] الترمذيُّ، الجامع الكبير، رقم (3637). ويُنظر: البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوَّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: 1/ 212.

[36] الترمذيُّ، الجامع الكبير، رقم (3645).

[37] أرسلان، شكيب، حاضر العالم الإسلاميِّ: 1/ 163.

[38] الدجاني، أحمد صدقي، الحركة السنوسيَّة: 112. (ويُنظر تفصيل رحلات الإمام ومراكز دعوته: الكتاب نفسه).

[39] يُنظر: المجذوب، عبد الله الطيب، المرشد في فهم أشعار العرب وصناعتها: 1/ 342.

[40] حول الفرق الدلاليِّ بين الثبوت والحدوث في المشتقَّات، يُنظر: السامرَّائيّ، فاضل، معاني النحو: 3/ 120 وما بعدها.

[41] البوصيري، شرف الدين، ديوان البوصيري: 45.

[42] أرسلان، شكيب، ديوان الأمير شكيب أرسلان: 184.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

ثانيًا: المصادر المخطوطة

1. السنوسيُّ، أحمد الشريف. الشموس النورانيَّة العرفانيَّة الإشراقيَّة في بيان أعلام الطريقة السنوسيَّة الإدريسيَّة المحمَّديَّة. مصوَّرة بمكتبة أحمد محمَّد جاد الله، البيضاء، ليبيا.
2. ابن مصطفى، محمَّد كامل. الكنَّاشة. مخطوط، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، رقم الحفظ: 2175.

ثالثًا: المصادر والمراجع المطبوعة

3. أرسلان، شكيب. حاضر العالم الإسلاميِّ. ط2، القاهرة: مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ، 1352هـ/1933م.
4. أرسلان، شكيب. ديوان الأمير شكيب أرسلان. بيروت: دار الكتب العلميَّة، د. ت.
5. الأشهب، محمَّد الطيب. برقة العربية أمس واليوم. القاهرة: مطبعة الهوَّاري، 1936م.

6. البخاري، محمَّد بن إسماعيل. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيَّامه. ط1، بيروت: دار طوق النجاة، 1422هـ.

7. بعيُّو، مصطفى عبد الله. المختار في تاريخ ليبيا. ط1، بنغازي: دار ليبيا للنشر والتوزيع، 1971م.

8. البوصيري، شرف الدين. ديوان البوصيريِّ. تحقيق: محمَّد سيِّد كيلاني، ط1، القاهرة: مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، 1955م.

9. البيهقيُّ، أحمد بن الحسين. دلائل النبوَّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. ط1، بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1988م.

10. الترمذيُّ، محمَّد بن عيسى. الجامع الكبير. ط1، بيروت: دار الغرب الإسلاميِّ، 1996م.

11. الترمذيُّ، محمَّد بن عيسى. الشمائل المحمَّديَّة. تحقيق: محمَّد عفيف الزعبيِّ، ط1، بيروت: مؤسَّسة الرسالة، 1420هـ/1999م.

12. التلِّيسيُّ، خليفة محمَّد. معجم معارك الجهاد في ليبيا 1911–1931. ط1، طرابلس: الدار العربيَّة للكتاب، 1972م.

13. جبران، محمَّد مسعود. مصطفى بن زكري في أطوار حياته وملامح أدبه وتحقيق ديوانه. ط2، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيِّين، 2007م.

14. الحبوش، يوسف عبد الهادي. عُمر المختار الحقيقة المغيَّبة. ط1، القاهرة: مكتبة وهبة، 2017م.

15. الحموي، ياقوت. معجم البلدان. بيروت: دار صادر، (د.ت).

16. ابن أبي خيثمة، أحمد بن زهير. التاريخ الكبير (السفر الثاني). تحقيق: صلاح بن فتحي هلال، ط1، القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة، 1424هـ.

17. الدجاني، أحمد صدقي. الحركة السنوسيَّة: نشأتها ونموُّها في القرن التاسع عشر. بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، 1967م.

18. ابن زكري، مصطفى. ديوان ابن زكري. تحقيق: علي مصطفى المصراتي، ط1، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، 1966م.

19. السامرَّائي، فاضل صالح. معاني النحو. ط2، عمان: دار الفكر، 2000م.

20. السنوسيُّ، محمَّد المهديّ. المولد الشريف النبوي. تحقيق: أحمد محمَّد جاد الله، ط1، الجغبوب: جمعيَّة الإمام محمَّد بن عليّ السنوسيّ للثقافة والتراث، 2022م.

21. السنوسيُّ، محمَّد بن عليٍّ. المنهل الرويُّ الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق. ط1، بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1424هـ.

22. شكري، محمَّد فؤاد. السنوسية دين ودولة. القاهرة: دار الفكر العربي، 1948م.

23. شلُّوف، عبد السلام محمَّد. معجم المواقع والوقائع الليبيَّة. بنغازي: دار ومكتبة الفضيل للنشر، 2007م.

24. العظم، صادق مؤيَّد. رحلة في الصحراء الكبرى بأفريقيا. القاهرة: مطبعة هنديَّة، 1900م.

25. المجذوب، عبد الله الطيِّب. المرشد في فهم أشعار العرب وصناعتها. ط2، الكويت: دار الآثار الإسلاميَّة، 1989م.

26. مسلم، أبو الحسين ابن الحجَّاج. المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل. ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربيِّ، 1955م.

27. ابن منظور، محمَّد بن مكرم. لسان العرب. ط1، بيروت: دار صادر، 1997م